المضمر المتجلي في السّيرة المكانيّة

كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين (483هـ) أنموذجا

Implications manifested in spatial biography Al-Tibyan book by Prince Abdullah bin Balqin as a model

*ط/د كوثر بوقروز
جامعة العربي بن مهيدي (أم البواقي)
Kawther.bougrouz@univ-oeb.dz

أ.د شاكر لقمان
جامعة العربي بن مهيدي (أم البواقي)
مخبر تعليميّة اللّغة العربيّة والنّص الأدبي
Chaker.Lokmane@gmaile.com

تاريخ الارسال: 28- 01- 2022	تاريخ التقييم: 13- 03- 2022	تاريخ القبول: 15- 06- 2022

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى محاولة استجلاء الخطاب المُضمر المُتجلي في السيّرة المكانيّة في كتاب التّبيان للأمير عبد الله بن بلقين؛ إذ تسعى للوقوف على أسباب وجود سيّرة مكانيّة نسقيّة في الكتاب، وتعمل على تحديد مواطن الدّوال المكانية في أعماق متن الكتاب والغوص في مضمراته النّصية المُشكلة للفضاء النّصي، والتي تنقسم إلى أماكن داخلية وخارجية، حاول من خلالها "عبد الله" طرح الصراع القائم في الأندلس عموما وفي غرناطة خصوصا، مستعينين ببعض مقولات النّقد الثقافي ونظرية التأويل.

كلمات مفتاحية: المضمر؛ التّبيان؛ المكان؛ داخلية؛ سرد.

Abstract: This research paper aims to clarify the implicit discourse which is manifested in the spatial biography in "Al-Tibyan Book" of Prince Abdullah Bin Balqin.

The research seeks to find out the reasons of having a coordinated spatial biography in the book. It works to identify the places of the spatial functions in the body text and dive into its textual passages that form the textual space. It is divided into internal and external places through which Abdullah tried to put forward the conflict in Andalusia in general and in Granada in particular using some quotes of cultural criticism and interpretation theory.

Key Words:

Implicit; Illustration; Place; Interior; Narration.

*المؤلف المراسل

1.مقدمة :

يوظف المُبدع الأمكنة ويُضفي عليها طابعا فنيا جماليا؛ إذ يتحول المكان لديه إلى كائن حيٍّ ذي مراحل حياتية، تاريخية وثقافية وحضارية، فيدمجهُ في سيرته الذّاتية في محاولة للسعي إلى كتابة سيرة لهُ بأسلوب تصويري ظاهر وآخر مضمر شديد الصلة بمراحل حياته يخلق جدلا يفتح المجال للمتلقي لسبر أغواره.

تشكل سيرةُ المكان فضاءً نصيّا، لهُ أبعادهُ الدّلالية في النّصوص الإبداعية؛ إذ يرتبط غالبا بعناصر أُخرى مُكوّنة للخطاب السردي؛ من أحداث وشخصيات وأزمنة... إلخ، لذا نجده يتفاعل ويتداخل مع تلك العناصر المذكورة سالفا، حيث يبلور كاتب سيرة المكان مكونات نّصه السردي وفق أفكاره وتوجهاته ورؤيته للعالم، ويقوم بتطويع آليات بلاغية وفنية للخروج بالأمكنة على اعتبار أنّها واقعٌ مجرد إلى كونها رموزا ذات دلالاتٍ تحتمل التأويل؛ مكتنزة بخطابات مضمرة على المُتلقي فك شفراتها، إذ إن الأمكنة مساحات ثقافيّة لها حضورها السلبي والإيجابي في ذهن ذاكرها في نصه الشعري أو النّثري، وتصبح للأماكن خصوصية وحساسية إذا كان كاتب النّص مُغتربا أو منفيا عن موطنه؛ إذ من خلالها يَربط الحاضر بالماضي ويسترجع ذكرياته فيه.

وقد كان للمكان عند الأدباء الأندلسيين أهميّة قصوى، إذ يشكل لديهم هاجسا قويا، يتجاوز الأبعاد الجغرافية إلى الأبعاد القوميّة، وقد أبدع الشاعر الأندلسي في تصوير الأماكن وإضفاء الجمال والخيال عليها، منذ فتح الأندلس إلى بعد سقوطها، حيث اشتد الحنين إليها ولا مجال للحديث عنها ووصف ربوعها ودورها، من دولٍ ورياضٍ وأماكن، وإذا كانت سيرة المكان واضحة جلية في الشعر الأندلسي مع كونها مكتنزة لدَلالات متشعبة، فقد كانت هناك كتابات نثريّة كثيرة عُنيت بسيرة المكان بطريقة مضمرة نقرأها في نصوصهم النّثريَة.

ونجد سيرة المكان مضمرة في السّيرة الذّاتية على اعتبار أنّها نوع أو فرع من فروع السّيرة عموما، بحيث نجد عند الأمير "عبد الله بن بلقين الغرناطي الأندلسي" (ت 483ه) في كتابه "التّبيان" مظاهر لسيرة المكان في الأندلس وخارجها.

وتهدف هذه الدّراسة إلى محاولة الكشف عن المضمر المتجلي في السّيرة المكانية عبر اتخاذ كتاب "التبيان" كنموذج لها، والهدف من ذلك محاولة قراءة الكتاب وتقديم تأويلات وفك شفرات سيرة المكان المخبوءة فيه، ويطرح إشكالية مفادها: ما هي تجلّيات سيرة المكان وأبعادها الدّلاليّة في كتاب التّبيان للأمير عبد الله؟ وماهي الأمكنة التي سيطرت على مستوى الحضور في متنه؟

2.مفهوم المضمر المتجلي: (النّسق المضمر)

يوجد الخطاب المضمر في كل نَص إبداعي فني جمالي؛ إذ يحق للمُتكلم أن يتصرف في الكلام مما يُضفي على نصه طابع التّشويق الّذي يسمح بتأويل النّص، ويتمركزُ التأويل حول الكشف عن السياقات المتنوعة التي تسرّبت إلى النّصوص وتحولت إلى خطابات مضمرة، ويحمل النّص من "نقول مُتضمنّة وإشارات وأصداء للُغات أُخرى وثقافات عديدة تكتملُ فيه خارطة التّعدد الدّلالي وهو لا يُجيب عن الحقيقة وإنّما يتبدد إزاءها"[1].

وقد اهتم رائد النّقد الثقافي في العالم العربي "عبد الله الغذامي" بالوظيفة النّسقيّة داخل النّصوص وجعلها من عناصر التّواصل وترتبط بالوظيفة الجماليّة، ويكون المضمر "نقيضا ومضادا للمعنى... والدلالة النّسقية سوف تكون هي الأصل النظري للكشف والتّأويل"[2].

3. مفهوم سيّرة المكان:

إنّ النّظرة اللّغوية لعبارة (سيرة المكان) تكشف للوهلة الأولى عن جمعها بينَ عنصرين: الأول (سيرة) والآخر (المكان)، فما الّذي يعنيه كل منهما؟

3. 1 لغة:

جاء لفظ (السيرة) في "لسان العرب" لابن منظور" في قوله: "السُّنّةُ، وقدْ سَارتْ وسرتُها؛ قالَ خالدُ بن زُهير، وقالَ ابنُ بَرّيّ: هوَ لخالد ابن أُخت أبي ذُؤيب، وكانَ أبُو ذُؤيب يُرسلها إلى محبوبته، فأفسدها عليه، فعاتبهُ أبو ذؤيب في أيات كثيرة، فقال لهُ خالدٌ:

فلا تجزعَنْ من سُنَّة أنت سرتَها فأَوَّلُ راض سُنَّةً من يَسـيرُها

يقولُ: أنت جعلتها سائرة في النّاس، والسّيرة: الطريقةُ، يُقالُ: سار بهم سيرة حسنة، والسّيرة: الهيئة، وفي التّنزيل العزيز: (سنُعيدها سيرتها الأُولى)[3]، ومن التّعريف اللّغوي الّذي أوردهُ المعجم يتبيّن أنّ معنى السّيرة بكسر السين وفتح الراء هي الطريقة والهيئةُ.

كما نجد تعريف "المكان" في لسان العرب في قول "ابن منظور": "قال ابن سيده: والمكان الموضعُ، والجمعُ أمكنةٌ... وأماكن جمعُ الجمع، قال ثعلبُ يبطل أن يكون مكان فعالا لأنّ العرب تقول: كن مكانك، أو قُم مكانكَ، واقعد مقعدكَ، فقد دلّ هذا على أنّهُ مصدر من كانَ أو موضع منهُ" [4].

ومن التّعريف السابق نلاحظ أنّ "المكان" في اللّغة يأخذ معنى: الموضع والمقعد، ولا يبتعد المعنى اللّغوي للمكان عن مفهومه الاصطلاحي.

3. 2 اصطلاحا:

يرتبط مصطلحا (السيرة والمكان) بجنس الرّواية وبالنّقد الحديث عموما على اعتبار أنّهما ظهرا في الغرب، غير أنّنا نجد لهما وجودا وممارسة في الأدب العربي منذ القديم؛ إذ عُنيَ الأديب بوصف الأمكنة ومنحها طابعا إنسانيّا تتحرك المشاعر والأحاسيس بداخلها ويستنطقها النّص في محاولة لنقلها من المجرد إلى الحسي، إذ يتكفل المُبدع بإنشاء سيرة للمكان تصفهُ وتبوح عن أسراره في لغة تقوم على السرد، ويُعرف "محمد صابر عبيد" سيرة المكان في قوله: "يتحولُ المكانُ لدى بعض المُبدعين إلى كائن مؤنس، لهُ تاريخهُ وحضارتهُ ومراحلُ تطوّره، يُغري ذوي الحساسيّة العالية منهم بالسعي إلى كتابة سيرة المكان... فيذهب المبدع (المكاني) إلى استعادة روح المكان_ تاريخا وجغرافيّة وحساسيّة واستدعاء الإنساني فيه لكتابة سيرته بأسلوبيّة تصويريّة جماليّة"[5].

ويمكننا القول إنّ سيرة المكان تدخل ضمن السّير الغيرية، يكتبها المُبدع إما مُستقلة أو ضمن سيرته الذاتيّة التي يقوم فيها باسترجاع أمكنة وأزمنة ماضية، ويُضفي عليها دلالات

متنوعة، تُبِينُ عن نظرة السارد ومراحل حياته، يستعيدها في نصه ويوجهها إلى القارئ لغايات ظاهرة ومضمرة، والمكان من المكونات المحوريّة في السرد، فلا وجود لأحداث خارج دائرة المكان و"أجود عيّنات استمرارية واقعية، بالمعنى البيرجسوني، إننا عاجزون عن معايشة الاستمرارية التي تحطمت، نستطيع أن نُفكر فيها فقط بمستوى تجريدي خال من الكثافة، إنّ أجود عيّنات الاستمرارية المتحجرة النّاتجة عن البقاء الطويل في المكان توجد في وعبر المكان: مقصورات اللاوعي، الذكريات ساكنة، وكلّما كان ارتباطها بالمكان أكثر تأكيدا كلما أصبح أوضح، أو وضع الذاكرة في الزمن هو فعل كتاب السيرة وهي تتوافق مع نوع من التّاريخ الخارجي"[6].

4. 1 عبد الله بن بلقين وكتابه التبيان:

عبر البحث في الكتب التّراثيّة التي أرخت لأعلام وشخصيّات (سياسيّة وأدبيّة) وتخصص لأبرز علماء الأندلس، لا نكاد نجد معلومات وافرة وترجمة كاملة "للأمير عبد الله" المُلقب بالمُظفر وما ذكر في القليل من المصنفات لا يعدو أن يكون إشارات مذكورة في "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي المالقي" و"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك فاس لابن ابي زرع" وغيرهما من المصادر التي نقلت عنهما، إلا أنّنا نجد "عبد الله بلقين" قد استفاض في الحديث عن نفسه في كتابه، وقد "ولد المظفر أبو محمد أبو محمد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكس ابن زيري بن مناد_ وهذا هو اسمه بالكامل_ في عام (447هـ، 1056م)، وبعد وفاة بلقين والد عبد الله (456هـ، 1064م)،سمّى باديس حفيده عبد الله وليّا لعهده"[7].

إذ بذلك تمّ تقديمهُ على ابن آخر لباديس المُسمى "بماكس"، وكذلك على تميم الأخ الأكبر لعبد الله، وقد "اتّفق خدّام دولته وأشياخ قبيلته على تقديم عبد الله بن بلقين... وكان عبد الله منذ ولايته الأمر صبيّا صغيرا لم يُقارب الحلم... وغرناطة إذ ذاك حافلة بالأعلام"[8].

وقد كان "عبد الله" واسع الثقافة متنوع المعارف على الرغم من أنه غادر المكتب في سن مبكرة بأمر من جده "باديس"، وتولى حكم غرناطة وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من

عمره، حيث تولّى تسيير دولته وزيره "سماجة"، ويبينُ كتابه "التبيان" عن فصول من حياته، وإذا كان تاريخ ميلاده وتاريخ توليه الحكم معروفا غير أنّنا نجد تاريخ وفاته غير مذكور في كتب التّراجم والسير التي ترجمت لهُ، وتكتفي بذكر أنّه نُفي على "أغمات" ولقى حتفه فيها ودفن بها.

4. 2 كتاب التّبيان:

ترك الأمير "عبد الله" كتابا في غاية الأهميّة لدارسي تاريخ الأندلس خاصة بعد ضياع بعض المخطوطات المهمة التي أرَّخت لفترة ملوك الطوائف، ويحتوي الكتابُ على تاريخ النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وقد أخرج الكتاب لأول مرة وحققهُ المستشرق الفرنسي "ليفى بروفنسال" وأطلق عليه تسمية "مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة"، وعن سبب تصنيف عبد الله للكتاب نجده يقول: "أما كتابة عبد الله لمذكراته، فقد كان أثناء إقامته الإجباريّة في أغمات، وإنّ هذه التّرجمة الشخصيّة تكوّن أعظم وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويرا"[9].

والمُطلع على كتاب "التبيان" يجد الأمير عبد الله لم يكن رجلا سياسيا فحسب بل كان أديبا شاعرا عالما، ضمّن كتابهُ أسلوبا جماليّا فنيّا يحتمل التأويل.

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ كتاب التّبيان تخلله الكثير من المفردات والكلمات العامية الّتي تعطينا فكرة عن لهجة غرناطة المشابهة للهجات المغاربة.

5. مضمرات سيرة المكان في كتاب "التبيان":

اهتم الإنسان منذ ساحق العصور بالمكان وأعاد إنتاجهُ فنيّا في نتاجاته الأدبيّة، ويتفاوت حضور المكان في النّصوص الإبداعيّة نظرا لأهميّته في تكوين النّص، ونجد له حضورا في كتاب التّبيان؛ إذ أضفى عليه "الأمير عبد الله" أبعادا ودلالات جماليّة فنيّة يرتبط بعناصر سرديّة أُخرى؛ حيث يتبادل التأثير والتأثر مع شخصية "عبد الله بلقين" ومع الأحداث وزمانها، وفي وصف الأديب للأمكنة يتجاوز عرضه كما هو، بل يُكون صورا تركيبيّة تُضفي عليه بُعدا جماليّا والساردُ "يتخلى عن عرض الأشياء بالطريقة الفوتوغرافيّة ويتوسلُ بالصورة المجازيّة والإيحائية... عبر وصف تعبيري يتبادل واقع الشيء والإحساس الّذي يُثيرهُ"[10].

وفي كتاب التبيان نجد المكان قاعدة ينهضُ عليها النّص حدثا وشخصيّة وزمانا، وبواسطة التّلميح يتخذ المكان أبعادا متعددّة (نفسيّة، ذاتية، حضارية، تاريخية، زمانية واجتماعية...إلخ).، في محاولة لكتابة سيرة مكانية لهُ تحفظ رسومهُ عن الاندثار كما تحفظ كاتبها.

5. 1 مضمر المكان وتحولاتهُ:

مضمر المكان هو المُعطى المُلازمُ لفضاء الزّمان، فإذا كان فضاء الزمان مُبرمجا في تواريخ وأزمنة فإنّ فضاء المكان لا يمكن تحديده إلا بوساطة تلك الصفات.

وسيرة المكان قد يغيب فيها الحوار والخيال، ولكن الشخصيّات المضمّنة داخل النّص تُضفي عليها وجودا واقعيّا لهُ دوره في معالجة الواقع الحياتي.

يمكن تحديد سير للأمكنة في كتاب التبيّان وتقسيمها إلى قسميّن:

5. 2 سيَر مكانية داخلية:

ونقصد بهذا المصطلح وضع سيرة للدّول الأندلسيّة والتي تأخذ طابعا نفسيّا وحضاريّا لدى "عبد الله بن بلقين"، فنجده يوظفُ مصطلحاتها بكثرة، وفي مواضع مختلفة، إذ يتحدث عن نفسه ويربط ربطا وثيقا بين شخصه وبين المكان وفي ذلك يقول: "وقد كنّا_ معشر أهل بيت المملكة_ نرى من آكد ما نتأدَّبُ به إعمال السياسة في طلب الرياسة"[11].

نجد هنا ذكر دولة مضمرة في قوله (بيت المملكة) ويقصد بها دولة بني زيري في غرناطة، وجاء الاصطلاح على تلك الشاكلة محملا بالفخر بدولة غرناطة، ويتكرر الأمر في ذكره للأندلس، حيث قال: "وأوّل ما ينبغي تقديمهُ ذكر دخولنا الأندلس، وكيفية ولايتنا إياها، إلى هلمّ جرا"[12]، نلاحظ أنّهُ انتقل إلى حيّز مكاني أوسع وأشمل، كما يُضيف تأملات يُحلل فيها تقلب الأحوال، وجدير بالذكر أنّهُ يشير إلى رفض أهل الأندلس (العامة) من لا ينتمون بالأصل إلى أهل المملكة وإن كان ذا فراسة ورياسة، وهذا يدل على نقمته ورفضه لهذا الوضع، إذ الأندلس فضاء مفتوح تأبى الانغلاق على المتطرف، وبما أنّ المكان الحاضر في ذهنه؛ أي الأندلس عاش فيه وكانت له فيه مآثر، كان لا بد له أن يتصدى لتلك الظاهرة التي تقصر المكان على فئة دون أُخرى.

وخلال تكرار مكان (الأندلس) نُدرك أنّه أخذ بعدا نفسيّا في ذاكرة "عبد الله" فيعيش غربة في المكان؛ غربة عن الأهل والوطن يفرضها المكان فيتحول للحديث عن ديار أجداده خارج الأندلس وعلى الرغم من أنّهُ لم يَعشْ فيها إلا أنّها حاضرة في ذاكرته، شديد الصلة بدولة بني زيري، وفي خطابه للمُتلقي يقول: "فاعلموا أنّهُ لم نأت الأندلس إلّا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحد، بانين على الإقامة إن اضطررنا إليها؛ ولم نأتها عن فاقة ولا سعاية؛ إنّما جئناها رغبة في الجهاد، وأن تكون كفايتها التي شُهرنا بها على العدو دون سائرهم"[13].

وتصاعد ذكر الأندلس في مواطن من الكتاب موجود في مخيّلة "عبد الله" فيرسم لها سيرة محملة بأبعاد نفسيّة تأخذ ملمح النقمة على أهلها في مواضع مختلفة من الكتاب، وتبرز بوصفها مكانا يضم أجناسا مختلفة؛ مما يمنحها صفات متعدّدة توحي بتقلب الأحوال فيها وكثرة المؤامرات وعدم الاستقرار، وهذا يُثير لدينا العديد من الأسئلة التي تحتمل إجابات متعددة، نحو: هل سيرة الأماكن المتعددة لدى عبد الله مرشحة لتكون صورة لطبيعة الحياة خلال فترة حياته؟ وهل ترتبط دائما بالصراع في سبيل البقاء والسيطرة؟

إذا كانت الإجابة: بـ : نعم، فإنّ سيرة المكان في الكتاب تحمل دلالات سياسية توافق توجه الملك "عبد الله" وترتبط بالجوانب الزمنية والتّاريخية، وتعدد ذكر الأمكنة والانتقال بالذاكرة من مكان إلى آخر مؤشر يدلُ على تحولات الأحداث المستمرة، وهذه الاستمراريّة تبين عن أثر المكان في نفسيّة "عبد الله".

وإذا عدنا إلى مدينة "غرناطة" التي نجد لها حضورا بارزا في الكتاب منذ بداية الكتاب إلى آخر صفحاته، حيث يسرد "عبد الله" للقارئ أحداثَ قيامِ دولة بني زيري وتحديدهم غرناطة دولة لهم، ويحدد مكانها بدقة "والمكان هو الكيان الاجتماعي الذي يحتوي خلاصة التّفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا فشأنهُ شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحمل جزءًا من أخلاقيّة وأفكار ووعي ساكنيه"[14] .

ويأخذ حضور غرناطة في ذهن "عبد الله" بعدا نفسيّا؛ إذ يحن إليها وهو مغترب عنها، ويتذكر أيام مجده فيها، وفي وصفها يقول: "واتّفق رأيُ الجميع أن يتخيّروا لأنفسهم جبلا مُنيفا ومعقلا شامخا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلّتهم وكثرتهم، ويجعلونه القاعدة...

فوقعت أعينهم على بسيط جميل، قد جمع الأنهار والأشجار؛ وجميع ما يليه من البلد كلّه ينسقي من وادي شلير المنحدر من جبل شُلير، وبصروا بالجبل الذي فيه الآن مدينةُ غرناطة، موسطة للبلد كله: الفحص أمامهُ، وجهتا الزاوية والسطح بجنبتيه، ونظر الجبل وراءهُ، فأفتنهم المكان، وعملوا عليه كلّ حساب، ورأوا أنّهُ في وسط النّعم وجمهور الرعايا... فشرعوا في بُنيانه، وتولى كل منهم إقامة داره من أندلس وبربر"[15].

ما سبق ذكره أطول مقطع يؤرخ لسيرة غرناطة في الكتاب وحضورها في كتابه دليل على حنينه إليها؛ إذ استخدم أسلوب (النوستاليجا) وتعني العودة بالذاكرة إلى زمان ومكان غرناطة التي كانت نسبة تكرار حضورها في الكتاب كبيرة، مقارنة مع غيرها من الأماكن، فهي موطن الجذب، ورمز من رموز السيادة والقوة، وإدراجه لبعض تفاصيل موقعها وحدودها يُبين عن إدراكه لقيمتها، "وتكرار الأماكن التي تتكرر داخل العمل الفني تعبر عن خصوصيّة ذلك العمل؛ مما يُميزه عن غيره، وبهذا يكون لكل عمل هويّة مكانيّة تترجم معالمه ليصبح المكان من افتراضات في ذهن المُتلقي"[16].

خلال وصف "عبد الله" للحالة الداخليّة لغرناطة يُبين عن موقفه منها، وفي ذلك يقول: " ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتهم، اطّلعنا على أمور دليلة على الانتقال، مؤذنة بالزوال" وفي هذا المقطع يلحظ مُتلقي نص "عبد الله" أنّ غرناطة أصبحت فضاء لتشكل الأحداث، وشعوره بزوال مدينته يشعره بالوحشة التي بقيت حاضرة في ذهنه فبذكر غرناطة وهي التي انتمى إليها مصيريا كونه ملكا لها بزوالها يزول وجودهُ وينتهي أثرهُ، وهكذا تأخذ غرناطة فضاء زمانيّا ومكانيّا حاضرا عندهُ يعني له أشياء كثيرة، وأصبح بالنسبة لهُ باعثا على الاضطراب والقلق؛ إذ الإنسان الذي له تجربة في المكان، يقوم بتحويله إلى قطب للذكريات إذا ما ارتحل عنهُ، مما يُظهر علاقة مناوئة بينهما تتشكل فيها لحظات اغتراب وصراع مكاني وزماني.

وقد اشتّد جزع "عبد الله" لحظة وصول أمير المرابطين "يوسف بن تاشفين" إلى موضع حكمه ومجده، نجد أنّ وتيرة القلق والحزن تتصاعد في كلامه، مع محاولة إلى ضبط النّفس والتّسليم بالقدر، فلا يجد مخرجا إلى الاستسلام وتسليم مدينته، وفي ذلك يقول: "ولمّا اتّسق له لم ما أمَّل، وعلم بما معهُ في البلدة، بعد تقديمه عسكره، كما ذكرنا، إلى

فحص غرناطة، وكان أهل البلد يتقلّعون من المدينة إلى البادية ويخرجون منها أفواجا، رأينا أمارة الشر وعلامة السوء، فإذا بأمير المسلمين في إثر ذلك العسكر مقبلا إلى الحضرة، فهاج النّاس وجزعوا" [17].

ارتبطت غرناطة عند "عبد الله" بالحضارة لكونها مكانا حضاريّا مدنيّا، وكان يرمز إلى تحديات وموانع أخرجتهُ منهُ مُكرها، بسبب تخاذل أهله وتخليّهم عنهُ، وانتقال "يوسف بن تاشفين" إليه لم يُرْضِه، وفي توظيفه لجملة (أهل البلد يتقلعون من المدينة إلى الباديّة) نجد المدينة أثرت فيه؛ إذ تُرادف الحضارة والقوة والنّصر، بينما الريف يرادف معنى الهزيمة والرجعيّة والانكسار، وتحولت غرناطة لديه إلى مكان موحش حزين تخلى عنهُ أهلهُ وسلموه إلى المرابطين، ومركزيّة الذات هنا تضعضعت ، كما نلمح تذبذبا في كلامه لكونه أُخرج من وطنه ومملكته.

وبعد استسلامه يتحول إلى النّقمة على أهل بلدته الّذين تخلو عنه وعنها، والعلاقة بين غرناطة وشخصه وطيدة إذ بسقوطها يسقط شخصه، ولهذا نجد تداخلا في محاولة لوضع سيرة لغرناطة وسيرة لهُ بداخلها وخارجها في نسق مكاني، فيحدد للمُتلقي مراحل خروجه عنها، حيث يقول: "فانتدب أهل دولتنا، يطلب كلُّ واحد منهم أن يُودع عنده شيء؛ فلم نفعل، وقلت في نفسي: هؤلاء يطلبون ما يتزودون به؛ وليس ذلك شفقة منهم عليَّ، وليس نُخلي من دفع ذلك إليهم من وجهين: إمّا فاسق يستأثر به دوني...وإمّا متَبشّلٌ ببغضه يحملهُ إلى الأمير ليتهنّى به ما يبقى لهُ"[18].

ولم يكن الاغتراب عن غرناطة قرار "عبد الله" بل أُجبر عليه، وينسبها إلى قوى ضغطت عليه ومالَه إلّا الطاعة والصبر، وفي ذلك يقول: "فلمّا تقصّوا الجميع، وتبيّن الحق، جاءني قرور بوصيّة السلطان، مع أبي بكر بن مسكن، وهو في ذلك عليَّ منتقم شانئ، ويقول لي: الأمير يُنهي إليك أنّ ما في قصرك قد تنزّلت عنهُ ... وفي تلك الليلة حان خروجي"[19].

يشهد النّص بتعلق الكاتب بالمكان وحزنه للخروج عنه؛ إذ بفقدانه فقد مكانتهُ، فتعلقه بغرناطة مأساة علقت في ذاكرته لا سبيل له لاسترجاعها إلا بإعادة تمثلها في نّص يرسم معالم سيرة مكانية لها.

ويمكن توضيح علاقة "عبد الله بن بلقين" بغرناطة كما يلي:

_ تمثل غرناطة مكانا ذاكراتيا لهُ مكانتهُ وحضوره في ذهنه؛ يُسيطر عليه وينقلهُ لماضيه الزاخر بالذكريات، له نسقه العاطفي الذي دفعه إلى محاولة كتابة سيرة بدافع الحنين إليه لحظة فراقه وبعدها، إذ يحمل المكان أحداثا مضت، بكل ما فيها من ذكريات ويوميات قد تكون حاملة للنقيضين؛ إما سعادة وهناء، وإما تعاسة وشقاء.

_ تحيل غرناطة إلى أبعاد رمزية لكونها وعاءً حاضنا ومسرحا لأحداث وشخصيّات لها حضورها الدائم في الكتاب.

5. **3 سير مكانية خارجية:**

تمتاز الأمكنة في كتاب التبيان بأنّها أمكنة حقيقيّة، راسخة في ذاكرة "عبد الله"، ويُسهم "المكان في إثراء الخطاب داخل النّص من خلال ما يريد الكاتب أن يُبرزهُ حين يختار أماكن تهمهُ، وتحديدا حين يسبغ عليها شيئا من البوح النّفسي؛ لتبرز ما يُريد من أحاسيس ودلالات"[20].

وفي فترة ملوك الطوائف التي أحاطت بها صراعات واضطرابات داخلية وخارجية والتي عايش أحداثها "عبد الله بن بلقين" وكان مُساهما فيها لكونه آخر ملوك الطوائف، إذ وجهت لهُ أصابع اتهامٍ كونه قد تواطأ مع ملك قشتالة النصراني "الفونش السادس"، وتبرز في كتابه ظاهرة التنقل إلى خارج الأندلس، تحديدا إلى شرق العدوة (الجزيرة الخضراء)؛ ففي سرده لقيام دولة بني زيري في غرناطة، يذكر كيف استعان "المنصور محمد بن أبي عامر" بجند وقبائل مُختلفة، وفي ذلك يقول: "فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيّتهُ وشدّته... فبادر إليه من شرق العُدوة من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به" [21].

تبرز هنا ظاهرة التّنقل من حيز المكان (الأندلس) إلى خارجها (برّ العُدوة) والتي تَعني شمال إفريقيا، في محاولةٍ للتنقل إلى مسقط رأس أجداده وذكره لمآثرهم. وحيّز المكان هنا مفتوح يوحي بالحريّة والمجد والقوة، وينتج رابطة إنسانيّة دينيّة تُلغي الحواجز العرقيّة وتذود عن دولة الأندلس والرابطة هنا الدين.

ولكننا نجد مرحلة انتقال وعكس للأحداث في كتاب التّبيان، فمنذ أن كانت العُدوة المغربيّة تعني المجد والسؤدد، تحولت إلى مصدر للهم وتكدّر النفس، وأمست مكانا مُغلقا وسجنا، بتحول مكانه يستشعر حالة من غربة الدّيار، فهيبة المكان المنفي إليه تحولت عنده إلى قلق من المجهول، وفي ذلك يقول: "وكُنا طول طريقنا جازعين، لا ندري ما يذهب إليه بنا، ولا ما الإشارة فينا...فكنت في طريقي ذلك تحت جزع وهلع، أسأل الله أن يُكفّر بها السيئات"[22].

يتميّز نصه بتقديم تصوّر شامل لحالته النّفسيّة مُثير لعاطفة المُتلقي؛ لأنّ مغادرة موطنه سيشغله ويجعله حزينا.

وفي مراحل نفيه إلى المغرب يذكر المناطق التي مرّ بها ويصورها بطريقة موحشة، حيث يقول: "فأُرسلنا إلى سبتة؛ ودخلنا البحر في يوم عاصف، أدركتنا فيه أهوال لم نكد نسلم منها إلّا بالأجل الذي لم يحضر، حتى خرجنا إلى سبتة... ثمّ نُقلنا إلى مكناسة الزيتون، وتلقانا الأمير"[23].

حضور هذه الأماكن في نّصه بطريقة مُتسلسلة، وابتداء الفقرة بقوله (أُرسلنا) تأشيرة واضحة عن رفضه لتلك الأماكن، وهذا الشعور آت من موقفة الشعوري تجاهها، والمكان المُقيد لدى الأدباء عموما يُثير خوفهم ويحول حيواتهم إلى ظلام وشقاء دائم، لهذا صور "عبد الله" تلك الأماكن تصويرا سلبيّا، فكان لتلك الأماكن قدرة على توجيه الأحداث وتسارعها.

ولحظة استقراره بالمنفى حوّل فكره إلى تأملات في الأقدار في محاولة منهُ إلى تطويع المكان ومحاولة الانتماء إليه والتأقلم فيه كمقاومة للواقع "فكل الأماكن تبدو منفى وتغريبة في غياب المكان الأصل، إنّها مقاومة خارج المكان الأصل، إنّها مقاومة خارج المكان من أجل التّعويض عن فقدانه بالاطمئنان إلى نوع معيّن من الانتماءات والهويّة"[24].

كما نجده يرجع بالسرد إلى نقطة البداية، حيث يقول: "وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس، ورتبة دولتنا وما انتهت إليه فيها أحكامنا، حسبما ساعدتنا عليه أذهاننا، ونالتهُ مقدرتنا، إلى انصرام الأمد"[25].

ولقد قارب "بلقين" أسئلة المنفى من زوايا متشعبة وربطها بالقدر وأضفى عليها تأملات فلسفيّة ليخفف عن وقع الصدمات التي تعرض لها، وخارج المكان كتب نصهُ مرتحلا به إلى حياته الأولى المغايرة لما يعيشه من تغرب ومنفى وتقلب للأحوال.

وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب تغيب سير المكان إلى الحديث عن الذات والانغلاق داخليا عليها.

6. التّتبع المساري للأمكنة:

ذكرنا سالفا بأنّه تعدد ذكر الأماكن في الكتاب (الأندلس، غرناطة، البيرة، العُدوة، صنهاجة، المريّة، وادي آش، جيّان، فاس، المغرب، مالقة، طليطلة...إلخ)، في مراحل زمانية مختلفة، وخلال التأريخ لأحداث سياسية، وتنوع ذكر الأماكن يُحدث حركيّة داخل الكتاب في زحزحة للأماكن، ويحمل دلالات منها: عدم الاستقرار الداخلي والخارجي وفقدان الهدوء، والأماكن التي ذكرها ووصف الأحداث الحاصلة فيها انعكست في نفسه، ويُضفي بنا هذا القول إلى أنّ هناك علاقات تبادلية بين تلك الأمكنة وبين شخصية "عبد الله بن بلقين"، وحضور المكان في كتاب "بلقين" يتداخل مع سيرته ويمتزج حتى ليصعب الفصل بينهما.

ومن خلال التتبع المساري للأمكنة في كتاب التبيان يفضي بنا إلى:

- الانتقال من أماكن داخليّة إلى أماكن خارجيّة، من أماكن مفتوحة إلى أماكن مغلقة، والفارق هنا أن بعض الأماكن المفتوحة قد تأخذ دلالة الانغلاق بما يتلاءم ونفسيّة "عبد الله بن بلقين"، والعكس صحيح.
- الانتقال الحدثي من أماكن تأخذ رمز الحضارة والنفوذ إلى أماكن أقل حضارة تتراجع فيها هيمنة الذات على المحيط.
- الانتقال من أماكن واقعية موجود فيها عبر الذاكرة إلى أماكن سيُنفى إليها "عبد الله بن بلقين".
- الانتقال في الحيّز المكاني والزماني نفسيهما (مدينة غرناطة).
- تكثيف صور الأماكن الحقيقية وربطها بشخوص بربريّة وافدة على الأندلس عموما.

ولعلّ تتبع ذكر الأماكن في الكتاب يشير إلى تناقص الهويّة عند عبد الله وانشطارها بين أماكن يعود بالذاكرة إليها، مما أحدث تقاطعات في حياته؛ حيث عمل على "تركيب تراث الأمكنة وإعمال النظر في تكوين الوعي في علاقته بمحيط متقلب من الشخصيّات والنّصوص والمؤسسات... ثم برصد انزياحاته المتكررة عن منطق تلك التأثيرات التاريخية والاجتماعيّة والثقافيّة"[26].

خاتمة:

من خلال ما سبق يخلص بنا البحث إلى النتائج التّالية:

_كتاب التّبيان عمل أدبي نقَل فيه صاحبُه سير مكانيّة شديدة الصلة بالأحداث السياسيّة.

_يعدّ المكان من المحاور الأساسيّة الّتي ساهمت في تشكيل السرد في كتاب التّبيان؛ إذ حوله "عبد الله بن بلقين" إلى أداة تقنيّة في بناء نصه، وأداة فنيّة تتفاعل مع مكونات السرد الأُخرى.

_يحمل المكان في الكتاب أكثر من دلالة نظرا لتداخل الأماكن الداخليّة مع الأماكن الخارجيّة وتفاعلهما مع بعض.

_يكشف المكان عن أبعاد ثقافيّة وحضاريّة للدول الأندلسيّة والمغربيّة.

_عمل الوصف على تصوير الوقائع الحادثة فيه وخلّص السرد من التراتبيّة الجافة للأحداث.

_يهتم عبد الله بالمكان على حساب الزمن؛ إذ تتماوج العلاقة بين المكان والشخصيات القائمة فيه.

_احتوى الكتاب على مظاهر حضاريّة في الأندلس، سياسيّة، وثقافية، تضمر خطابات نسقية موجهة إلى المُتلقي.

الإحالات والهوامش:

[1]_فضل صلاح:مناهج النقد المعاصر ، 2002، مناهج النّقد المعاصر، مصر، ص، 164.

[2]_الغذامي عبد الله: 2005، النّقد الثقافي، 2005، المركز الثقافي العربي، صفحة ،78 .

[3]_ابن منظور أبو الفضل، د.ت، لسان العرب، دار المعارف، مصر، مادة، (س_ي_ر).

[4]_المصدر نفسه، مادة (م_ك_ن).

[5]_عبيد محمد صابر، 2011، المغامرة الجماليّة للنّص السير ذاتي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص،237.

[6]_باشلار غاستون، 1984، جماليّات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتوزيع، لبنان، ص، 39.

[7]_ ابن بلكين عبد الله، 2011، التّبيان، تح: توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، ص، 38.

[8]_ابن الخطيب لسان الدين، د.ت، أعمال الأعلام، تح: ليفبروفنسال، دار الكشوف، لبنان، ص، 234.

[9]_ابن بلكين عبد الله، 1955، مذكرات الأمير عبد الله، تح: ليفبروفنسال، دار المعارف، مصر، ص، 08.

[10]_إلياس جاسم خلف، 2010، شعريّة القصة القصيرة جدا، دار نينوي، سوريا.ص، 113.

[11]_ابن بلكين عبد الله، التّبيان، ص، 54.

[12]_المصدر نفسه، ص، 55.

[13]_المصدر نفسه، ص، 61.

[14]_النّصر ياسين، 1986، الرواية والمكان، دار الشؤون الثقافيّة، العراق، ص، 17.

[15]_ ابن بلكين عبد الله، التّبيان، ص، 61.

[16]_الخشرمي خالد، 2013، الشرق والغرب في السيّرة الذاتيّة العربيّة، الانتشار العربي، لبنان، ص، 278.

[17]_ابن بلكين عبد الله، التبيان، ص، 158.

[18]_المصدر نفسه، ص، 160.

[19]_المصدر السابق، ص، 163.

[20]_الخشرمي خالد، الشرق والغرب في السيّرة الذاتيّة العربيّة، ص، 265.

[21]_ابن بلكين عبد الله، التبيان، ص، 57.

[22]_المصدر نفسه، ص، 164.

[23]_المصدر السابق، ص، 164.

[24]_مسعودي سليمة، 2019، جدل السياقات والأنساق، ميم للنّشر، الجزائر، ص، 37.

[25]_ابن بلكين عبد الله، التّبيان، ص، 166.

[26]ماجدولين شرف الدين: 2012، الفتنة والآخر (أنساق الغيرية في السرد العربي)، دار الأمان، الرباط، المغرب، ص، 179.